منـهاج النـبـوّة

في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة

الباحثان :

علي أحمد السعود

جواد عيسى العدرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التعريف بهذا العمل

" الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجاً ، قيماً .. "
الحمد لله الرحمن الذي خلق الإنسان ، علمه البيان ..
الحمد لله الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ..

والصلاة والسلام على الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ..

يقول الله جلّ وعلا :

﴿ .. قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ **نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ** ﴿١٥﴾ **يَهۡدِي بِهِ** ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ **وَيُخۡرِجُهُم** مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ **وَيَهۡدِيهِمۡ** إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة

" هذا هو **كتاب الله** .. وهو الذكْر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين ..
وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ..
فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحُكْم ما بينكم ..
وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تنقضي عجائبه .."

﴿ .. وَإِنَّهُۥ **لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ** ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾ فصلت

أما بعد ..

ما أُنشأت هذه الأمّة المسلمة الخاتمة إلا بالقرآن ، بوصفه رسالة الله الخاتمة ، وعلى يد رسول الله الخاتم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم .. وما وُجدت إلا من أجل أن **تستمر** من بعده في **أداء مهمته** – تحقيق الغاية من الرسالة – **وتخْلُفه** فيها ، ألا وهي : عبادة الله تعالى وحده ، وحمل رسالته رحمة للعالمين، " لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام " ..
فما وُجدت هذه الأمّة إلا لتُحافظ على تحقيق الغاية من الرسالة – وقد حققها رسول الله .. وليكون المسلمون حينئذٍ ، شهداء على الناس بوصفهم أمة مسلمة لله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ **جَعَلۡنَٰكُمۡ** أُمَّةٗ وَسَطٗا **لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ** وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ البقرة

وتلك النشأة الأولى للأمّة الخاتمة وتحقيق الغاية من الرسالة ، حدثت على مكث ، وعلى بصيرة .. وكانت البداية مع بداية تلقي الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم آيات القرآن الحكيم مرتلة ..

وباستمرار **التلقي المرتّل** للآيات ، استمر سير رسول الله والمسلمون معه نحو الغاية ، أولاً بأول وخطوة بخطوة .. فكلما نُزّلت مجموعة آيات أو سورة من القرآن المجيد ، وتلاها رسول الله على الناس ، وبيّنها لهم، وعلّمهم ما فيها مما أراده الله ربّ العالمين منهم .. تلقاها المسلمون بحب وشغف ، وسارعوا إلى تحقيق ما أمرهم به ربّهم في واقعهم ، عن رضا وتسليم .. فبهذا كانت تُضاف لبنة أخرى في بناء الأمّة ، سيراً نحو الوصول إلى الحالة المرادة للأمّة أن تكون عليها..

فعن طريق " التلقي المرتّل " لآيات الرسالة كان بناء الأمة المسلمة ، لبنة بلبنة ، وخطوة بخطوة ..

وما أن أوشك تنزيل آيات الرسالة الخاتمة على التمام ، حتى أكملت الأمّة المسلمة عبوديتها (دينها) وانقيادها لله عزّ وجلّ .. ونزلت البشارة بذلك في حجة الوداع :

﴿ ..**ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ** ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ** وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ...﴿٣﴾ ﴾ المائدة [1]

وبذلك ، فقد وصلت الأمة إلى اكتمال النشأة والتكوين ، وإلى حالة من توفر القدرة والإرادة ، جعلتها على أتم الاستعداد للقيام بالمهمة التي أُنشأت من أجلها ، والتي جعلها الله تعالى لها ؛ أي لتخْلُف رسول الله الخاتم في مهمته ، باستمرار تحقيق الغاية من رسالة الله في واقعها .. وحمل رسالة الله للناس كافة ، رحمة وبركة :

﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ..﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران

ومن ثَمّ ، فقد حان الوقت في تقدير الله جلّ وعلا ، لتوفّي رسوله الكريم وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، حيث بلّغ الرسالة وأدى الأمانة .. ولتبدأ الأمّة المسلمة مباشرة مهمتها المنوطة بها ..

هذا ، وقد قامت الأمّة – ممثلة بأجيالها الثلاثة الأولى – بمهمتها خير القيام .. فقد انساح دين الله في أصقاع الأرض ، وأزيلت أكبر إمبراطورية وثنية .. وتقهقرت الأخرى وعادت إلى جحرها .. فرفع الله بذلك نير عبودية الطاغوت عن رقاب الناس ، وتحرروا من عبادة العباد .. فاصبحوا في دين الله إخواناً ، سواسية متساوين إلا أن يتفاضلوا بالتقوى ..

وبقيت الأمة على تلك الحال ما شاء الله لها أن تكون ..

1 - أنظر تعقيب الإمام الطبري في تفسيره على هذا الجزء من الآية الكريمة . حيث يقرر - رحمه الله - أن إكمال دين الأمة يعني إكمال دينونتها وعبوديتها لله ، وليس بمعنى إكمال تنزيل القرآن .

ثم ما لبثت الأمة – وبسبب الغفلة عن مهمتها التي وُجدت من أجلها – أن أوقعت نفسها في السّنن التي وقعت بها الأمم حَمَلة الرسالات التي سبقتها ، فأصابها بعض ما أصابها .. ثم آل أمر المسلمين – على طول تاريخهم الطويل – إلى التردد بين هبوط وصعود .. فبحسب ما كانوا يغيّروا ما بأنفسهم ، كان الله سبحانه وتعالى يغيّر بحالهم وواقعهم :

﴿ ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ..﴿١١﴾ ﴾ الرعد

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأنفال

إلى أنْ صار أمر آخر هذه الأمّة إلى مثل بداية إنشائها ، فعاد الدّين غريباً كما بدأ ، والقابض على دينه كالقابض على الجمر .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ..

إلا أن هذه الأمة المسلمة الخاتمة باقية لن تموت مادام القرآن – بوصفه الذِّكْر – باقياً ، وقد جعل الله عزّ وجلّ الخير فيها إلى يوم القيامة ، لبقاء القرآن وبقاء بيانه ..

فلا بد – إذاً – من **قَوْمة** لهذه الأمّة الكريمة من كبوتها ، **ونَهْضةٍ** [1] من وهدتها ، **وإقالةٍ** لعثرتها ، حتى تعود لأداء مهمتها الأساس ، التي وُجدت من أجلها .. فتعود لتتبوأ مكانتها الكريمة السامقة التي اختارها الله تبارك وتعالى لها .. فتفوز بخيري الدنيا والآخرة .

و " لا يصلح أمر آخر هذه الأمّة ، إلا بما صلح به أولها " .. فلا تعود لها الحياة مرة أخرى إلا بنفس " المنهاج " [2] الذي وُجدت به و أُنشأت أول مرة ..

فكان من الواجب الشرعي الآن ، بل من أول الواجبات ، تحصيل العلم بـ " **منهاج النبوة** " في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة ، أي العلم بالطريقة العملية التي التزمها رسول الله الخاتم في تلقّى الرسالة الخاتمة والسير بها ، بلاغاً وبياناً وتطبيقاً ، حتى أصبحت حقيقة في الواقع الإنساني ، متمثّلة بالأمّة المسلمة الخاتمة ، كما كانت يوم انتقل – صلّى الله عليه وآله وسلّم – إلى الرفيق الأعلى ، وقد أكملت دينها (عبوديتها) لله ، فكانت خير أمّة أُخرجت للناس [3]..

فـ " **منهاج النبوة** " في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة .. هو الطريق الوحيد الذي إن سار بحسبه المسلمون الآن عادوا كما كانوا ، خير أمّة أخرجت للناس ، بإذن الله تعالى ..

---

1 - نهض : النون والهاء والضاد أصل يدل على حركة في علو . ونهض من مكانه : قام (معجم المقاييس).

2 - ((المنهاج ، له ثلاثة ألفاظ تستعمل فيه : " النهج " و " المنهج " و " المنهاج "، وكلها يقصد بها الطريق، لكن " المنهج " أغلب استعماله في الطريق الفكري . وأغلب استعمال " النهج " في الطريق مطلقا. وأغلب استعمال " المنهاج " في الطريق العملي الذي له أصل فكري . ولكن الذي هو في البؤرة في لفظة " المنهج " هو الطريق الفكري ، أي الكيفية النظرية التي يتم وفقها الوصول إلى حقائق معينة . وأما " المنهاج " فهو الطريقة العملية التي يُسار عليها للوصول إلى مقصد بعينه)) . (الهدى المنهاجي في القرآن الكريم) . د الشاهد البوشيخي - مجلة حراء التركية .

3 - (منهاج النبوة) : أصل هذا الاصطلاح ورد في التعبير القرآني في قوله تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (48)) المائدة . و ورد عن رسول الله صلّى الله عليه آله وسلّم : (.. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة..) . صحيح الجامع للألباني . فالأمّة المسلمة الخاتمة، لها " شرعتها " و " منهاجها " الخاصان بها .

فمن أجل ذلك ، كان هذا العمل أو المشروع .. فهو مساهمة ومشاركة في تجلية وبيان " **منهاج النبوة** " .. وهو محاولة لإذكاء النار التي تحت الرماد .. لعلها تتقد وتتوهج ، فتبعث الحياة بحرارتها ، وتُبدد الظلمة الحالكة بنورها ..

و يقوم هذا العمل – كما ينبغي أن يقوم أي عمل يقصد بيان " **منهاج النبوة** " – على الوعي لحقيقة رسالة الله **الخاتمة** ، من حيث **الفكرة** ، ومن حيث **الغاية** ، ومن حيث **المنهاج** ، والفهم لها على مُراد الله عزّ وجلّ ، وكما **بيّنها** رسول الله بياناً **عملياً** ، **متمثلةً** في أمّة ..

ومن ثَم ، جاء هذا العمل مكوناً من **ستة مباحث** أو **أجزاء** رئيسة :

المبحث الأول : فكرة الرسالة ؛

وموضوعه ، بيان **البناء** الذي جعل الله تعالى عليه الرسالة الخاتمة في مواضيعها الكبرى : الإيمان بأركانه ، والإسلام بأركانه ، وحمل الرسالة للناس بركنيه : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ؛ دعوة وقتالاً [1]..

وأن لذلك البناء أساساً يقوم عليه ، وأن أُسّه هي الحقيقة اليقينية الكبرى **لا إلـه إلا اللـه** ، فهي " فكرة الرسالة " ، أي الفكرة التي تقوم عليها الرسالة بكاملها ، وهي ركنها الركين :

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ الأنبياء

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء

فالرسالة (الدين/ العبادة) في محتواها ، تقوم على حقيقة أنه لا إله إلا الله ، أي لا معبود بحق إلا الله .. وهي تتضمن قضيتين اثنتين ، إلهية وعبودية :

إلهية الله وحده بلا شريك ، فلا طاعة إلا لله وحده – قدراً وشرعاً – فهو وحده الخالق المالك الحي القيّوم..

وعبودية كل ما سوى الله – الخلق جميعاً – لله وحده جلّ وعلا ، فهم كلّهم مخلوقون لله مملوكون له ، قائمون بالله مستمرون في وجودهم به عزّ وجلّ :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الروم

1 - كما بيّنتها سورة العصر : ((وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ **الْإِنسَانَ** لَفِي **خُسْرٍ**{2} **إِلَّا** الَّذِينَ:
آمَنُوا ،
وَ**عَمِلُوا** الصَّالِحَاتِ ،
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ، **وَتَوَاصَوْا** بِالصَّبْرِ{3})) .
فلا ينجو من الخسران إلا من كان مؤمناً ، ويعمل صالحاً ، ويدعو إلى الله ويذكّر بالله . أنظر (تبيان سورة العصر) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ النحل

وأن الله تبارك وتعالى ، قد كرّم الإنسان على كثير ممن خلق ، وخصّه بمنزلة الخلافة في الأرض ، والسيادة والتصرف فيها .. فخصّه بمنزلة كونية سامقة .. وفي المقابل حمّله المسؤولية على ذلك في الدنيا والآخرة .. ومن ثَمّ ، أنزل الله جلّ وعلا الرسالات وبعث الرسل إلى الناس لهدايتهم إلى منهج العبودية له، المنهج الحق في إدارة شؤون تلك الخلافة .. المنهج الأحسن في التصرف بالإمكانيات والصلاحيات الكبيرة التي تَحمّل الإنسان مسؤوليّة أمانتها .

هذا ، ولكل جزء من الرسالة (الدين) مكانته وأهميه ، وقيمته وأولويته ، التي جعلها الله له ضمن البناء المتكامل للدين .. فلا بد أن يظهر أثر ذلك على تلقينا الرسالة ، سواء عند الفهم والتزكية ، أم عند الخطاب والحركة ، أي سواء عند التطبيق أم عند حملها للناس .. مع بذل الجهد – أثناء ذلك – في الترقي إلى " الإحسان " في ذلك كله ..

فلا بد – عند الفهم والتطبيق – من إعطاء كل جزء من الدّين مكانته وحجمه وقيمته وأولويته .. التي جعلها الله له ، دون زيادة أو نقصان ..

وخير من يُتأسّى فيه بذلك هو مبلّغ الرسالة نفسه ، رسولنا محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، حيث قال :

(الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ) [1] .

وفي حديث آخر خاطب رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وسلَّم بعض المسلمين الذين تقالّوا عبادتهم إلى عبادته فأرادوا الزيادة ، كماً أو كيفاً ، على ما سنّه وبيّنه ، فقال لهم :

(أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) [2] .

ومن هنا كانت العبودية لله – من حيث الطريقة والمنهاج – تقوم على ركنين : الإخلاص لله ، واتباع رسول الله الخاتم محمّد ، صلّى الله عليه وآله وسلّم والاقتداء به .

# # #

1 - رواه مسلم عن أبي هريرة رقم 58 .

2 - رواه البخاري 5063 ، ومسلم 1401. " سنتي " : طريقتي في عبادة الله تعالى ، أي ديني . [فسنته هنا : ما جاء به من الكتاب والسنة ، والتزام سنته يكون باتّباع كل ما جاء به عليه الصلاة والسلام من الوحي كتاباً وسنة ، فمن فعل ذلك فهو سائر على منهاج النبوة ، وهو سالك طريقة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم] (شرح سنن أبي داود للعبّاد).

المبحث الثاني : غاية الرسالة ؛

وموضوعه ، بيان الغاية التي من أجلها أنزل الله تعالى الرسالة الخاتمة ، ألا وهي : بيان الشريعة ومنهاج **العبودية لله** وحده ، الذي رضيه الله للناس حتى يسيروا بحسبه في جميع مجالات حياتهم :
﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ . ﴿١٨٥﴾ ﴾ البقرة

لذلك أرسل الله نبيّه محمّد ، صلّى الله عليه وآله وسلّم ، لجعل دين الله حقيقة واقعة تحكم حياة الناس . أي لجعل " فكرة الرسالة " وما بُني عليها من أحكام العبودية لله – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة – حقيقة حية في الواقع الإنساني ، وحاكمة عليه . فـ **لا إله إلا الله** ، منهاج حياة وطريقة عيش ، كما **بيّنها** رسول الله الخاتم ، بياناً عملياً واقعياً :

– متمثلة ومتحققة في " أمّة مسلمة لله " [1] ..
– لها سلطان على بقعة من الأرض ..
– قادرة على " إكمال الدين " [2] لله عزّ وجلّ .. **بتطبيق** كل ما جاء في الرسالة على واقعها . **وحمل** رسالة الله رحمة للعالمين . **والمحافظة** على ذلك حتى قيام الساعة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ البقرة

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة [3]

---

1 - ((الأمّـة هي : كل جماعة يجمعهم أمر ما. إما دين واحد أو زمان أو مكان واحد ، سواء كان ذلك الأمر تسخيراً أم اختياراً)) المفردات - الراغب الأصفهاني . فيُطلق وصف الأمّة على الجماعة باعتبار الأمر الجامع لهم : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ **أمّة** مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ **الرِّعَاءُ** وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23)) القصص . فالأمر الجامع الذي جعل من الجماعة الذين يسقون أمّة ،هو كونهم رعاء. (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أمّة وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118)) هود .أي لم يكونوا أمّة واحدة، لأنهم ليسوا مجتمعين على أمر واحد . (وَمَا كَانَ النَّاسُ إلا أمّة وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (19)) يونس . فلم يعودوا أمّة واحدة لاختلافهم . وعليه، فالمسلمون أمّة من دون الناس، باعتبار الأمر الجامع لهم وهو أن الإسلام متمثل بهم ظاهر فيهم . والضابط في إطلاق وصف الأمّة على مجموع المسلمين هو أن يظهر في واقعهم كل ما أوجب الله تعالى الإجتماع عليه من الدين وحرّم التفرق فيه ، فبقدر نقصان ظهور هذا الأمر الجامع في واقع المسلمين ، بقدر ما بعُدوا عن حقيقة كونهم أمّة مسلمة لله .

2 - إكمال الدين لله هو : جعل العبادة كلها خالصة لله وحده - قصداً واتباعاً : (أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ.. (3)) الزمر ، أي عدم الشرك بالله ، فلا تكون الطاعة والإتباع إلا لأمر الله تعالى وحده بلا شريك ، وفي جميع شؤون حياة المسلمين وعلاقاتهم، أفراداً وأمّة ومجتمعاً : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5}) الفاتحة . انظر تفسير الطبري ، وتعليقه على آية سورة الزمر هذه، وآية (3) من سورة المائدة .

3 - في الحقيقة ، هذه هي المهمة الأولى لجميع رسل الله ؛ أن يجعلوا العبودية لله تعالى حقيقة حاكمة لحياة الناس في جميع شؤونها ، يقول الله تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{25}) الحديد . (({ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات} أي : بالمعجزات ، والدلائل القاطعات . { وأنزلنا معهم الكتاب } وهو : النقل المصدّق . { والميزان } وهو : العدل أو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة.. ولهذا قال في هذه الآية : =>

وهي حالة " إكمال الدين " لله التي كانت عليها " أمّة المسلمين " يوم حجة الوداع ، وانتقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، إلى الرفيق الأعلى :

﴿ .. ٱلۡيَوۡمَ **يَئِسَ** ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ **أَكۡمَلۡتُ** لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ..﴿٣﴾ ﴾ المائدة .

# # #

المبحث الثالث : **المنهج** ؛

وهو الطريق الفكري [1] ، والتأصيل الشرعي .. وموضوعه ؛ بيان الأصول والضوابط الشرعية التي ينبغي مراعاتها عند فهم " منهاج النبوة " في ضوء ما تم بيانه سابقاً من " فكرة الرسالة " و " الغاية من الرسالة " ، وفي ضوء ما جاء في القرآن وما بيّنته السنة الثابتة – ومنها السيرة النبوية – حول طبيعة تلقي رسول الله الرسالة وقيامه بها – شرعاً وقدراً – حتى تحقيق الغاية منها . وفيه نتعرّض لمواضيع عدة ، منها:

- بيان طبيعة تلقي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الرسالة **مرتلةً** ، وواقع سيره بها على **خطوات** متتابعة ، بقصد تحقيق الغاية منها .
- بيان كيف يكون التأسي في رسول الله بما سبق بيانه من تلقيه الرسالة وسيره بها.. ذلك أن من أعمال السير ما هو من العبادة الملزمة (فرض أو مندوب) ، ومنها ما هو متعلق بالواقع الإنساني الذي بُعث فيه رسول الله ؛ بزمانه ومكانه وأشخاصه ، أي من الأساليب (المباح) .

{ ليقوم الناس بالقسط } أي : بالحق والعدل وهو : اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق.. وقوله : {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد} أي : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه؛ ولهذا أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة تُوحَى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وتبيان ودلائل، فلما قامت الحجة على من خالف ، شَرَع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذّب به وعانده . وقد روى الإمام أحمد (المسند (50/2)) وأبو داود (السنن برقم (4031)) .. عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : { بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له ، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجُعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم }. ولهذا قال تعالى : { فيه بأس شديد } يعني : السلاح كالسيوف والدروع، ونحوها . { ومنافع للناس } أي : في معايشهم كالفأس ، والمنشار.. والآلات التي يُستعان بها في ما لا قوام للناس بدونه ، وغير ذلك . وقوله : { وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب } أي : مَنْ نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسله . { إن الله قوي عزيز } أي : هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض)) . تفسير ابن كثير - باختصار . ومن أخص خصائص أمة محمّد أنها مكلفة بالاستمرار في مهمة الرسول الخاتم الذي لا نبي بعده : تحقيق العبودية لله وحده ؛ من خلال تطبيق الرسالة على نفسها ، وحملها للناس كافة دعوة وجهاداً .. وهذا هو مناط خيريّـتها : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ .. {110}) آل عمران . وعليه مدار مجدها وعزتها أو ذلها ومهانتها .

1 - المنهج : هو الكيفية النظرية التي يتم وفقها الوصول إلى حقائق معينة .

- ومن المعلوم أن الترتيب (الترتيل) التفصيلي لنزول آيات الرسالة ، والذي كان سير رسول الله بحسبه، لم يُحفظ كله بل فُقد جلّه .. فلم نُؤمر بحفظه . ولكن ، وفي المقابل ، فقد حفظ الله عزّ وجلّ آياته كلّها، وعلى ترتيب (ترتيل) آخر غير ترتيب النزول ، وهو " التسوير " .. بحيث جُعلت آيات القرآن موزّعة في مجموعات محددة ، وكل مجموعة تشكّل وحدة واحدة متجانسة ، هي " السورة " .. فكان " التسوير" من أبرز خصائص نظم القرآن المجيد ، والذي جُعل به القرآن جملة واحدة . وهو ليس جمعاً للآيات (النَّص) فقط ، بل جَعْلها ضمن نسق أو ترتيب معين (السورة) .. هذا هو القرآن .. آيات مرتبة في سور .. وهو كلّه – **نصّاً** و**تسويراً** – **وحيٌ** من الله جلّ وعلا .. وهو **كلّه** – **نصّاً** و**تسويراً** – **مُتعبَّد به** ، واجب التمسّك به ، تلاوة و دلالة :

﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ ﴾ الزخرف

ومن هنا ، فالهدى الذي في القرآن ، متحقق فيه كلّه ، **في دلالة النص** (الآية أو الآيات) ، **وفي دلالة السورة** ، أي في كون آيات معيّنة تشكّل وحدة واحدة هي السورة ، فهذا له دلالة وفيه هدى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ... ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء

- بيان أن الأصل في وجه دلالة " **التسوير** " – **المُتعبَّد به** ، تلاوة و دلالة – أنه في إطار **تحقيق الغاية** من القرآن ؛ إكمال الأمة دينها (عبوديتها) لله جلّ ثناؤه .. فما أنزل الله عزّ وجلّ القرآن الحكيم إلا لتحقيق الغاية منه .. وما جعله الله تعالى هكذا في كامل خصائصه وتكوينه وتركيبه .. سواء من حيث المحتوى أم من حيث الأسلوب ، من حيث الأفكار والأحكام والحقائق ، أم من حيث الصياغة ووسائل البيان والتعبير .. إنما جاء لتحقيق الغاية من القرآن الكريم في الواقع الإنساني ، هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، بواسطة **أمة** تطبّقه في واقعها وتحمله للناس :

﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ الإسراء

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ ﴾ الطارق

فكما أن للآية الواحدة أو مجموعة الايات دلالتها على كيفية تحقيق " الغاية من الرسالة " ، فكذلك فإن لآيات السورة الواحدة – بوصفها تشكّل وحدة واحدة – دلالتها أيضاً ..

فكان لا بد من معرفة كيفية الإستدلال بـ " السورة " على " المنهاج " ..

وهذا هو " الفهم المنهاجي " للسورة من القرآن الكريم ، أي تلقيها وفهمها كطريق عملي (منهاج) للسير بالرسالة ، من البداية حتى تحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني ..

ولتوضيح معالم هذا الفهم المنهاجي ، كان المبحث (الجزء) التالي .. فمبحث " المنهج " ، يُعتبر

خطوة أولى ، يحسُن أن تتبعها أخرى مُكمّلة .. فبعد عَرْض التأصيل وبيان الضوابط ، يحسُن أن يتبعه البيان العملي المفصّل .. وهاتان الخطوتان أو المبحثان ، يشكلان لب هذا العمل وقلبه .

# # #

المبحث الرابع : التبيان لسور القرآن ؛

وهو الخطوة التالية المكمّلة للسابقة ، فهو نتيجة وثمرة التطبيق العملي – لما جاء في مبحث " المنهج " من أصول وضوابط – على سُوَر القرآن الكريم لتلقيها وفهمها كـ " منهاج " . أي نتيجة للنظر فيها بوصفها سوَراً ، بقصد معرفة دلالة كل سورة منها على خط سير رسول الله بالرسالة ، من بداية تلقي الرسالة حتى النهاية وتحقيق الغاية .

ففي " التبيان لسور القرآن " ، البيان العملي المفصّل لـ " منهاج النبوة " في تلقي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الرسالة ، وسيره بها في معالجة واقعه الإنساني حتى تحققت الغاية منها ..
فالقرآن الحكيم هو قِوام [1] " المنهاج " ، ولا نقول أنه دليل عليه أو يتضمنه فقط .. بل إن القرآن الحكيم نفسه ، بسوره وآياته ، بألفاظه ومصطلحاته .. هو قِوام " المنهاج " ومادته ، خطاباً وأعمالاً :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ **أَقْوَمُ**... ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء
أي ، إن هذا القرآن الذي بين أيديكم ، فيه الهداية للتي هي أعدل وأعلى .. هكذا على وجْه الإطلاق **فيمَن** يهديهم ، **وفيما** يهديهم ، فيشمل الهُدى أقوامًا وأجيالاً في كلّ زمانٍ ومكان ، ويشمَل ما يهديهم إليْه كلَّ منهج وكلَّ طريق ، وكلَّ خير يهتدي إليه البشَر [2].

﴿ ... **وَنَزَّلْنَا** عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ **تِبْيَٰنًا** لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ النحل
أي ، وآتيناك القرآن مفرقاً على مكث ، من أجل البيان الواضح الذي لا لبس فيه ، لكل شيء متعلّق بتحقيق الغاية من إنزاله – إكمال العبودية لله تبارك وتعالى – فما أُنزل القرآن إلا **لبيان** كيف يُعبَد الله وحده ، **ولتحقيق** تلك العبودية في الواقع .

فالقرآن بسوره وآياته ، بألفاظه ومصطلحاته .. هو قِوام " المنهاج " ومادته ..

وهكذا ، بتلقّي الجيل الأول آيات القرآن – بقيادة رّسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم – كان البيان القرآنيّ للسير به حتى تحقيق الغاية منه ، فكان القرآن لهم نوراً وهدى في **عبوديتهم** لله ، وبصيرة في **دعوتهم** إليه تبارك وتعالى ، وحسب المرحلة التي هم فيها.. خطوة خطوة .. فكان يبيّن الحالة التي عليها

1 - والقِوام : أسم لما يقوم به الشيء ، أي يثبت ، كالعِماد والسِّناد لما يُعمد ويُسند به . (المفردات لـ الراغب الأصفهاني).
2 - أنظر تفسير السعدي ، و (في ظلال القرآن) لسيد قطب .

الجماعة المسلمة من جهة ، والمجتمع الجاهليّ من الجهة الأخرى .. أو الحالة التي عليها الأمّة المسلمة والمجتمع الإسلامي .. من خلال بيان **سُنن الله تعالى الثابتة** ، وبيان أين تقع هذه الحالة الحادثة منها .. فيضرب لهم الأمثال، ويقص عليهم القصص .. تعليماً وتثبيتاً .. ويبيّن كذلك ، **المعالجات الشرعية** – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة – والتي على الجماعة المسلمة أو الأمّة المسلمة بقيادة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الاستقامة عليها والتزامها في معالجة تلك الحالة التي هم عليها أو التي يواجهونها .. مُبيّناً لهم كيفيّة السّير وعلى طول الطريق كلها ، من حالة الاستضعاف في مكة وحتى التمكين في المدينة ، وما بعد التمكين حتى إكمال الدّين لله سبحانه وتعالى .. فكان سير رسول الله والمؤمنين معه ، على هدى وبصيرة حتى أصبحوا أمة مسلمة لله ، كاملة السمات والخصائص ..

وبهذا ، تبوأت الرسالة الخاتمة مكانتها الحقة – شرعاً وقدراً – التي جعلها الله تعالى لها ، وهي قيادة وتوجيه الجماعة المسلمة ومن ثم الأمّة المسلمة في السير ، من بداية الطريق حتى النهاية وتحقيق الغاية .

هذا ، ونشير في (التمهيد) بداية هذا المبحث ؛ " التبيان لسور القرآن " ، إلى بعض القضايا والأفكار التي تبيّن خصائص هذا " التبيان " وتميّزه عن غيره من أساليب وطرق تفسير وبيان القرآن الأخرى ؛ مثل التفسير التحليلي ، والتفسير الموضوعي ..

# # #

المبحث الخامس : <u>التنزيل على الواقع</u> ؛

وموضوعه ، تنزيل ما تم بيانه – فيما سبق – من معالجات وأحكام مفصّلة لـ " منهاج النبوة " .. على واقع المسلمين الآن ، لبيان خط السير بالرسالة الذي ينبغي على المسلمين أن يلتزموه الآن لتحقيق الغاية من الرسالة .

وتنزيل " المعالجات الشرعية " [1] على الواقع، أي " المناط " [2] يكون حسب الطريقة الشرعية المعروفة:

– حيث بدايةً ، لا بد من " تحقيق المناط " .. وذلك بالتحقُق من صفاته وخصائصه التي تميّزه فلا يلتبس بغيره ..

1 ـ المعالجات الشرعية هي : الفهم لدلالة الدليل الشرعي حسب الأصول المعتبرة لغة وشرعاً ، سواء في الإيمان أم العمل الصالح أم الدعوة . فهي أعم من الحكم الشرعي المتعلق بأفعال العباد ، ومتضمنة له ، فهي تتعلق بالفكر أيضاً ؛ سواء بالحكم على واقع الشيء ما هو ، أم بالحكم على وجوده من عدمه ، أم بالحكم على الفكر أنه حق أو لا ، كل ذلك مأخوذ من الدليل الشرعي .

2 ـ المناط هو : ما أناط ، أي علّق ، الشارع الحكم عليه ، أي المسألة التي ينطبق عليها الحكم الشرعي . (الواضح في أصول الفقه) لـ محمد حسين عبدالله . فمناط الحكم الشرعي هو الواقع الذي جيء بالحكم له ، فالحكم متعلق به .

– ثم تحديد الأدلة المتعلقة به ، وفهمها فهماً شرعياً لمعرفة المعالجات الشرعية اللازمة ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً ..

– وبعد ذلك ، تنزيل ذلك الفهم أو المعالجات على الواقع المعين (المناط) ، ليُصاغ كما يُحب الله تعالى ويرضى[1].

وبتعبير آخر، إن بحث " التنزيل على الواقع " موضوعه ، بيان كيفية تلقي الرسالة – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً – والسير العملي بها في الواقع الحالي لـ " الأمّة المسلمة " ، من أجل تزكيتها وتعليمها الكتاب والحكمة .. حتى تحقيق الغاية من الرسالة فيها ، فتعود – كما كانت – خير أمة أخرجت للناس ، وقد أكملت دينها لله عزّ وجلّ .. مقتدين في ذلك كله برسولنا محمد .. إمامنا وأسوتنا ، صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بناءاً على ما تم فهمه وبيانه في الأجزاء السابقة .

# # #

<u>المبحث السادس : مفاهيم ومصطلحات رسالية</u> ؛

وموضوعه ، بيان وتوضيح المفاهيم والمصطلحات التي وردت واستُخدمت في الأبحاث السابقة ، سواء في **فكرة** الرسالة أم في **الغاية منها** أم في **المنهج** .. شرعيّةً كانت أم من المعارف والعلوم الأخرى ذات العلاقة .. حيث يكون البحث فيها مفصلاً وشاملاً – قدر الوسع والحاجة – للعودة بها إلى حقيقتها الناصعة البيّنة ، وخاصة الشرعية منها ، وقد لحق بعضها شيء من التغيير أو التبديل أو التحريف .. لأسباب مختلفة ، منهجية أو تاريخية أو غير ذلك .

والحمد لله رب العالمين .. وهو وحده المستعان وعليه التكلان .

1 - وهكذا فكل معالجة شرعية للواقع مبنية على مقدمتين ، الأولى : تحقيق المناط ، مهمتها معرفة وتحديد الواقع المراد إصدار الحكم عليه . والثانية : فهم النصوص الشرعية المتعلقة بهذا الواقع . ثم ؛ تُطبق الثانية على الأولى . وبعبارة أخرى يُتوصل بمعرفة الواقع والتفقّه فيه ، إلى معرفة حكم الله في ذلك الواقع . (المرجع السابق) .